(القراءة الفعالة في ضوء المنحنيات التاريخية للحضارة)

د/ سحوان عطاء الله
د/ طلحة المسعود، جامعة الجلفة

ملخص: إن النسق المجتمعي بمختلف تفاعلاته الايجابية والسلبية يرجع إلى البنية النسقية للمنظومات الخمس المنظومة الروحية المنتجة للعبادة، والمنظومة القانونية المنتجة للعدل والمنظومة الاقتصادية المنتجة للعمل والمنظومة الأخلاقية المنتجة للواجب والمنظومة التربوية المنتجة للمعرفة. والمعرفة لها علامة وحيدة بالقراءة والمعرفة. ففي اللحظة التي تزهر الحضارة في المجتمع تكثر العلوم والمعارف وتزخر بحارها، وبالتالي تكون نسبة المقروئية بالمطالعة، وفي اللحظة التاريخية الفجيعة التي يجثم فيها التخلف الحضاري على صدر الأمة، تصاب الأمة بالسكتة المعرفية ويصبح العلم في ذيل الترتيب للأولويات لأن الأمة تكون مشغولة بعالم الأشياء زاهدة في عالم الأفكار، وبالتالي تكون نسبة المقروئية ضعيفة.

كلمات مفتاحية: (القراءة الفعالة ، المنحنيات التاريخية، الحضارة)

Abstract : The societal pattern in its various positive and negative interactions is due to the structural structure of the five systems, the spiritual system producing the worship, the legal system producing justice, the economic system producing the work, the ethical system producing the duty, and the educational system that produces the knowledge. Knowledge has a single sign of reading and knowledge. At the moment when civilization flourishes in society, science and knowledge abound and its seas abound. Thus, the percentage of readability is read, and at the momentous historical moment in which the cultural backwardness descends on the nation's chest, the nation becomes aware of the cognitive stroke and science becomes at the bottom of priorities because the nation is preoccupied with the world of things. The world of ideas, so the visual ratio is weak

مقدمة:

حركة القراءة في التاريخ ترتبط ارتباطا وثيقا بالحضارة والتخلف لأن الإنسان بصفته كائنا تاريخيا متغير الأطوار في اللحظة التاريخية التي تنتظم فيها شؤونه عبادة وعدلا وعلما والعمل واجبا، تكون أسواق المعرفة في المجتمع عامرة وإقبال الناس على المطالعة والقراءة عادة اجتماعية، وطبع الكتب والمؤلفات في تزايد كبير. وفي اللحظة التاريخية التي ينفرط فيها عقد المجتمع، وينخرم فيها أمره، وتتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية تنقلب موازين الحياة التاريخية للجماعة ويسود الإلحاد والظلم والجهل والكسل والمطالبة بالحقوق فقط، وتصبح أسواق العلم خاوية على عروشها وأهل الفكر والعلم محل تندر واستهزاء في المجتمع، ويزهد الناس في مطالعة الكتب والإقبال على القراءة إنها لحظة السكتة التاريخية التي يصاب بها الجسم التاريخي للمجتمع.

1- فعالية القراءة:

القراءة الفعالة هي القراءة المتميزة بحضور العقل والقلب واليد في نفس اللحظة، إنها قراءة خاضعة للاستراتيجيات والمهارات الحديثة، فهي قراءة ذكية مرنة وممتعة.

" القراءة هي أهم مهارة يتعلمها الإنسان للنجاح في دراسته، وفي حياته، وإن أي تقصير في مجالها هو تقصير في حق الفرد والأسرة والمجتمع والأمة بأكملها. وإن المشكلات التعليمية التي يعاني منها التلاميذ، إنما تعود أساسا إلى عدم تعلمهم كيف يقرؤون، وضعف تكوين مهارات القراءة لديهم، منذ سنوات طفولتهم الأولى. وبرغم ذلك مازالت مدارسنا للأسف الشديد تدير رأسها للجدار، بدل الالتفات إلى هذا الجانب الحيوي من حياة البشر، ومنحه الرعاية التي يستحق، ووضع الاستراتيجيات الكفيلة بدعمه، وتطويره، لأن ترك الأمور تسير كما هي عليه الآن، وفق المناهج والطرائق القديمة التي لم تعد مجدية في أي حال من الأحوال، سيبقينا متخلفين

عن العصر وآفاقه الواعدة.

يقول ألبرت اينشتاين:" ليس هناك دليل مؤكد على الجنون، من كونك تفعل الشيء نفسه، وتعيده مرات ومرات، وتتوقع أن تكون النتيجة مختلفة". لذلك نقول: إن استمرار مدارسنا في انتهاج الطرق التقليدية في التعليم، تلك التي تعتمد التلقين، والاستظهار،ورد البضاعة، سيجعل النتائج باقية، هي هي، دون تغيير، أي متخلفة هزيلة لا تصلح لهذا العصر وآفاق المستقبل.

وتقع مهارات القراءة في الأساس، داخل قسمين رئيسيين، الأول: هو المهارات الفيزيائية التي تتجلى في كتابة الحروف الهجائية، ورسمها، وتنظيمها. أما القسم الثاني: فالصوت، والمعنى، وقواعد اللغة، ثم النص (الكتاب)، وهي قلب القراءة، ولا عجب أن نسمع من أطفال ما يفيد أنهم يكرهون القراءة، وذلك بسب الطريقة التي يتعلمون بها، وعدم توجيههم نحو القراءة الصحيحة.

ولا يمكن توقع نتائج قرائية جيدة في غياب استراتيجيات فاعلة للقراءة، يشرف على وضعها خبراء متخصصون في علوم التربية، وعلم النفس، وعلم اللغة، وما إليها، لأنه ليست هناك طريقة واحدة للقراءة، بل هناك طرق متعددة، بعضها يفيد بعض القراء دون غيرهم، وبعضها الآخر يفيد آخرين، كما أن بعض الاستراتيجيات تعمل جيدا في بعض الحالات دون أخرى، لذا فان تحقيق النتائج الايجابية لا يكون إلا عند استخدام كل إستراتيجية منها في الوقت المناسب. والقراء الجيدون هم أدرى بذلك، لأنهم يستخدمون استراتيجيات متعددة بمرونة كبيرة، فإذا لم تساعدهم إحداها، يستخدمون أخرى، وهكذا.

إن للقراءة أنواعا، وأشكالا، وأساليب، وهذه بدورها لها مستويات متعددة أيضا، بعضها سهل، والبعض الآخر صعب، وبعضها أصعب. وان امتلاك مهارات القراءة يمنح القراء ثقة اكبر بأنفسهم، ويشدهم إلى الاستمتاع بها، والإفادة منها. ويجب على القراء مواجهة هذا التحدي، من مرحلة إلى أخرى، دون التمكن من مرحلة السابقة عليها.

وقضية القراءة ليست بهذه السهولة التي قد يتصورها بعضهم، لأن فهم القارئ للكلمات، لا يعني فهم النص. صحيح أن كثيرا من الألفاظ يمكن فهمها بسهولة، غير أن قضية فهم النص هي قضية أخرى تماما.

والقارئ الجيد هو الذي يحضر نفسه للقراءة، غنه القارئ الذي يسعى إلى معرفة موضوع النص المقبل على قراءته، ومعرفة معلومات عامة عنه، لأنها تحضره لاستيعاب النص المقبل على قراءته، وفهمه عند قراءته. إن أفضل القراء هم القراء المتنبئون، وان أول شيء يجب التنبؤ به هو موضوع النص، وملامحه العامة، مع صفاته الأساسية، والتحري لاكتشاف المضمون، من خلال طرح الأسئلة على الكتاب، وعلى النفس. وأفضل الأسئلة هي التي تبدأ بحروف الاستفهام التالية: من، كيف، ماذا، متى، أين، كم، أي؟.والقارئ الجيد هو الذي تكون قراءته أوسع من تحريك عينيه فوق النص، انه القارئ الذي يتصل بالنص، ويقترب منه، ويتواصل معه، بل ويتحدث إليه. انه القارئ الذي يقرا النص أكثر من مرة، عند الحاجة، حتى يستكمل الفهم، ويضع في أثناء قراءته علامة استفهام عند كل شيء لا يفهمه، وعلامة تعجب، عند الفكرة التي يستحسنها، كما يضع خطا تحت كل كلمة لا يفهمها، وهو الذي يسجل ملاحظاته في الهوامش. ثم إن القراءة للمرة الأولى ليست أكثر من محاولة لفهم الموضوع بعامة، دون التركيز على نقاطه الفرعية والجزئية، لأن ذلك لا يكون إلا عند القراءة الثانية، أو ربما الثالثة، والرابعة، وهي قراءات التأني وفهم الألفاظ الغريبة في النص. وهي بطبيعتها أكثر بطأ من القراءة الأولى، وفيها يتم استخراج الألفاظ المفتاحية، والجمل المفتاحية، واستيعاب الفروع، والأجزاء، وأخذ الملاحظات.

وترتبط استراتيجيات القراءة بمستويات القراء وأعمارهم، وثقافتهم وحاجاتهم القرائية والبحثية وغيرها.1

وعلى هذا الأساس نجد أن القراءة الفعالة أكثر إنتاجية ومردودية من القراءة العشوائية والغير ممنهجة، وهي التي يحتاج إليها الطالب والدارس والباحث والعالم.

2- **العلاقة الترابطية بين الحضارة والقراءة في المجتمعات العربية:**

لا يزال السلوك القرائي لدى الإفراد والجماعات يخضع للشروط التاريخية لواقع الحضارة ذات الأبعاد والمتغيرات السوسيولوجية المطلقة أساسا من فعالية أو عدم الفعالية في مخبر التاريخ ففي اللحظة التاريخية التي يحدث فيها الانفجار الحضاري على مستوى الخريطة التاريخية للمجتمع يصبح للعلم والمعرفة والقراءة مكانة اجتماعية تتزايد مع تزايد حركة التمدن والتحديث والنهضة

والحضارة. وبالمقابل في لحظة الصدمة التاريخية الكاسحة للحضارة يبدأ عصر الانحطاط والانهيار التاريخي للمجتمع والدولة والأمة ويليه التكدس والتعفن وتكثر المشاكل وتضيع الأوقات والطاقات على مستوى الفرد والجماعة والدولة وتنحصر المطالب والحاجات لدى الجميع في الحاجات البيولوجية ويصبح تحقيقها هو الحلم التاريخي الأعظم، أما الحاجات السيكولوجية والتي من بينها القراءة والعلم والكتابة والإنسان والعقل فيتم التضحية بها في سبيل تحقيق المطالب البيولوجية على مستوى الإنسان والجماعة، وتحقيق الاستثمار في التراب والزمان بدل الاستثمار في الإنسان ككائن تاريخي مفجر للإبداعات والمعجزات عبر التاريخ.

" نهل أجدادنا العرب، خلال عصور تألقهم الحضاري من كل علم، واستزادوا من كل أدب وفن. لقد كانوا عشاق معرفة وبحث، بذلوا في سبيلها الغالي والنفيس، وتحملوا من أجلها مشقات السفر، غير عابئين بشيء، من هم وكدر، فشيدوا لأمتهم بناء شامخا، وصرحا حضاريا قويا، اهتدت به أمم الأرض ردحا طويلا من الزمن.

أما اليوم، فقد انطفأت شعلتنا، وخبا نورها، عبر مئات السنين من التأخر والتخلف، والعيش على هامش التاريخ، بسبب توقفنا عن طلب العلم والمعرفة، بعد أن ساد الجهل مجتماعاتنا المتلاحقة، وتوقفنا عن الحركة، مكتفين باستهلاك منتجات الآخرين، والاندهاش لإبداعهم، علما بأننا نعيش اليوم في عالم يجري الاعتماد فيه على المعلومات في كل شيء، وفي مختلف الميادين، لأن فيها عناصر القوة، والسيطرة، والتفوق. انه عالم لا يسمح بالارتجال والعشوائية. فمجتمع المعلومات، الذي نعيش –نحن العرب- على هامش بعيد من هوامشه، للأسف الشديد، يعتمد في مسيرته على أربعة معايير أساسية هي:

أولا المعيار التكنولوجي، الذي يقاس به مدى انتشار تقنيات المعلومات، عند كل أمة تعيش فيه، وفي كل مكان فيها، داخل المدن والأرياف، وفي المؤسسات والمدارس والجامعات ، والمنازل ، ومدى استخدامها، والقدرة على التحكم فيها.

إما المعيار الثاني، فهو المعيار الاقتصادي، ويعكس مستوى الدخل المادي للأفراد، والموارد الذاتية للأمة، وقوة مؤسساتها الاقتصادية، ومدى مشاركتها في الاقتصاد العالمي.

وهناك ثالثا، المعيار السياسي، ويعكس مدى ترسيخ الشورى في الحياة السياسية، والادارية وتعزيزها، كذا حرية التعبير، وحسن اختيار المسؤولين، والنضج السياسي للأفراد.

وأخيرا المعيار الرابع، وهو المعيار الثقافي، ويقاس به المستوى الثقافي والعلمي للناس، ومدى إقبالهم على الاطلاع والبحث، وهو تقديرنا، أهم المعايير جميعا، وأجلها شأنا، لأنه عماد المعايير الثلاثة الأولى، وأساس وجودها، ومحرك عملها ونشاطها.

إن مجتمعاتنا العربية، مازالت للأسف بعيدة عن مجتمع المعلومات، وان مؤسساتنا التعليمية، والأكاديمية، وهي قلبه النابض، ودماغه المفكر، مازالت متخلفة عن العصر، علما بأنها الجهات الأكبر تأثيرا في تكوين العادات القرائية الايجابية عند الناس، وفي غرس الإقبال على البحث في نفوسهم، وترسيخ قدرات التعامل مع وسائل التقدم والتطور، لولوج عالم التقنيات فائقة الصغر، والذكاء الاصطناعي، والطرق السريعة للمعلومات، والمكتبات الافتراضية. لذلك نقول: إن على هذه المؤسسات، وبصورة لا تقبل التأخير أو التأجيل، أن تستبدل بالمفهوم التقليدي للتعليم، مفهوما جديدا، يعتمد مبدأ التعليم الذاتي المستمر، ويقوم على المشاركة والبحث، بدل التلقين والاستظهار، قصد الانتقال من دون الناقل المستهلك، إلى دور المشارك في صنع الحياة، وآفاق المستقبل، وليس أمامنا من سبيل إلى ذلك، سوى ترسيخ عادة القراءة الجادة الواعية لدى جميع الناس، بمختلف الفئات والأعمار، وفي كل مكان، وخلق الظروف الملائمة للإبداع والابتكار، خدمة لأمتنا، وحفاظا على حريتها، وكرامتها، ومستقبل أبنائها، بعيدا عن سياسة الإملاء الغربية، التي تبذل قصارى جهدها للهيمنة والسيطرة.2

دخول العالم اليوم ووصوله إلى الحضارة الرقمية يجعل إقامة مجتمع معرفي نشط أكثر من ضروري والعرب مازالوا متخلفين في هذا المجال أيما تخلف، مما يلزمهم عاجلا الخروج من هذه الغيبوبة التاريخية التي قد تأتي على الأخضر واليابس.

3- العلاقة الترابطية بين القراءة الفعالة والحضارة العربية المسلمة:

ظهرت الحضارة العربية المسلمة على مسرح التاريخ في القرن التاسع الميلادي ودامت خمسة قرون ساطعة كالشمس في رابعة النهار وهاجة مضيئة أبدعت في كل الميادين والعلوم، بقيت موضع اندهاش العلماء والباحثين عبر التاريخ حتى أسست جامعة

فرانكفورت فرعا لها مختصا في دراسة هذه الحضارة العظيمة وهو معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية واشتهر الإنسان العربي في ذلك الزمان بحب المطالعة والشغف بجمع الكتب

" في إعقاب الحرب العالمية الثانية انتشر الوباء الرغبة الملحة في الحصول على سيارة وثلاجة وتلفزيون، هذا بينما كان العالم العربي قديما شديد الولع باقتناء الكتب، فاقبل على شرائها كل من استطاع إلى هذا سبيلا كما انتشرت الرغبة في الشراء انتشار العدوى في جميع البلاد العربية، وكانت هذه الرغبة لا تفوقها رغبة أخرى اللهم إلا رغبة العالم الحديث.

وكما أن المستوى الاقتصادي والعقلي والاجتماعي للإنسان في عصرنا الحالي يتطلب امتلاك السيارة والتلفزيون، فان المستوى العربي فيما بين القرنين التاسع والثالث عشر كان يقاس بالمكتبة الخاصة.

ولا شك في أن الخليفة عندما أشار عليه وزيره البرمكي، الدالاى لاما، الوحيد من آسيا، بتأسيس مكتبة في دار الحكمة ببغداد، استجاب لتوه إلى هذه المشورة وشعر بالحاجة إليها، فدور الكتب تنمو وتزدهر بسرعة، فقد حدثنا رحالة عام 891م أن ببغداد المطلة على دجلة مائة مكتبة عامة يستعين بها كل طالب علم سواء أكان مستعيرا أم مطلعا بداخلها، وبكل مكتبة المترجمون والنساخ في قاعاتهم الخاصة، كما توجد بكل مكتبة قاعة كبرى عامة للندوات والمناقشات وهي شبيهة بالأندية الانجليزية اليوم.

ومدينة صغيرة مثل النجف كانت في القرن العاشر الميلادي فخورة لامتلاكها أربعين ألف مجلد في الوقت الذي كانت فيه الأديرة الأوربية تقيد هذا العدد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة في السلاسل نظرا لندرتها وخوفا عليها من الضياع. إما مكتبة مدينة الري فقد سجلت أسماء كتبها في فهرس يقع في عشرة مجلدات كبيرة وكان في كل مسجد مكتبة، وكل مستشفى يستقبل زواره في قاعته الكبرى الغنية بالكتب، ويحرص على شراء جميع ما يظهر من الكتب الطبية إشباعا لحاجة الطلاب والباحثين. وفي مرصد "مراغة" يدون ناصر الدين الطوسي أربعمائة ألف مخطوط، وما ينهض به خليفة بغداد يجوز أيضا لأصغر الأمراء وفي أقصى أطراف الدولة، فنجد في جنوب بلاد العرب أميرا عالما يملك مكتبة بها مائة ألف مجلد، ثم نجد ابن سينا ولما يبلغ الثامنة عشرة يزور سلطان بخارى المريض واسمه محمد المنصور استجابة لرغبة طبيبه الخاص لمساعدته طبيا، فتقديرا لمجهوده أذن له السلطان في أن يختار من مكتبة القصر ما يحتاج إليه من كتب للدراسة، وهذه المكتبة منظمة تنظيما موضوعيا، كما تشغل غرفا كثيرة من غرف القصر، وقد شاهد ابن سينا فيها كتبا لا يعرف الكثيرون أسماءها، كتبا لم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد.

وبعد أن ترك ابن سينا القصر السلطاني بزمن قصير شبت النيران في القصر فاتت على المكتبة، وكان هذا الحادث من الأسباب التي دفعت جماعة من حساده وأعدائه على اتهامه بأنه هو الذي احرقها، حتى يحتكر هو ما بها وينسبه إلى نفسه.

لكن أحدا – حتى خليفة قرطبة الذي كان يوفد المبعوثين والعملاء لاقتناء أهم الكتب وأشهرها لمكتبته الخاصة استكمالا لها وتيسيرا للعلم لطلابه- لا يقارن بالخليفة العزيز في القاهرة، فمكتبة الفاطميين كان بها زهاء مليون وستمائة ألف مجلد في حالة جيدة كاملة، ومن بينها ستة آلاف وخمسمائة كتاب في الرياضيات وثمانية عشر ألفا في الفلسفة، وهذه المكتبة لم تثن ابنه عندما تولى الحكم عن تأسيس مكتبة أخرى إلى جوار الأولى وكانت تشغل ثماني عشرة قاعة.

وقد شجع هذا الاستعداد لدى الخلفاء والسلاطين الوزراء وغيرهم من رجال القصر على النسج على منوالهم، فنجد الوزير المهلبى يترك عندما توفى عام 963م نحو مائة وسبعة عشر ألف مجلد، وهذا العدد لم يكن نادرا، كما نجد زميله ابن عباد يقتني مكتبة من مائتين وستة آلاف مجلد كما خلف أحد القضاة مليونا وخمسين ألف مجلد، ولو أن هذه الأرقام مبالغ فيها، وأن لفظ مجلد قد يطلق على فصل مستقل، إلا أن المبالغة في ذكر هذه الأعداد تشير إلى مدى المفاخرة باقتناء الكتب والأهمية التي كان يعلقها القوم على اقتنائها، وهذا الغرام باقتناء الكتب حقيقة لا مراء فيها بدليل هذا الخبر الذي يروى عن احد الوزراء، انه لم يقم يوما من الأيام برحلة ما دون أن ترافقه مكتبته وكانت حمولة ثلاثين جملا. وقد قلد القيصر فريدريش الثاني العرب في هواية الكتب وتشجيع العلم والعلماء، ولا غرابة في هذا فالقيصر فريدريش الثاني هو تلميذ العرب في كل شيء فحتى في تنقلاته كان يحمل معه مكتبته على ظهور الإبل. ولدينا الآن سؤال آخر؟

أين اليوم المكتبات الخاصة التي تشتمل كل واحدة منها على ما يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف مجلد، كما جمعها من قبل أمثال

طبيب صلاح الدين الخاص المسمى ابن المطران ثم الصيدلي الشهير ابن التلميذ وكذلك ابن القفطى المؤرخ؟ ولا يفوتنا أن نذكر أن الكتب لم تكن تطبع في ذلك الحين بل كانت تنسخ والنسخ قد يستغرق الأشهر أو السنوات. فهي لم تكن رخيصة بل غالية، فابن الهيثم مؤسس علم البصريات تناول خمسة وسبعين درهما أجرا لنسخ جزء من اويقليد، وقد عاش ابن الهيثم عاما كاملا ينفق من نصف المبلغ. وابن الجزار الطبيب الرحالة المرح، أحد أبناء القيروان، خلف مائتين وخمسين قنطارا من الرق الذي كتبه بيده، وهذا الرق هو جلد الغزال. ويحكى عن طبيب آخر خبر لا يقبل شكا من احد من معاصريه، أن سلطان بخارى دعاه إلى قصره فرفض الدعوة لأن انتقاله إلى بخارى يضطره إلى الحصول على أربعمائة جمل لنقل مكتبته التي تزن حوالي عشرة آلاف كيلو جرام. كذلك يحكى عن عالم آخر توفى عن ستمائة صندوق كتب في مختلف العلم والفنون، ويقال غن حمل كل صندوق كان يتطلب عددا كبيرا من الرجال، نعم إن الإنسان قد يجد عددا قليلا من العلماء الذين يحتاجون إلى مراجع علمية خاصة، فهؤلاء كانوا يوجدون في مختلف العصور، ولو أنهم كانوا أحيانا قلة، لكن الأمر عند العرب كان على عكس ذلك، فهواة الكتب كانوا كثرة وكانوا يوجدون بين سائر الطبقات وليس فقط بين العلماء، فكل متعلم من السياسي إلى تاجر الفحم، ومن قاضي المدينة إلى المؤذن خبير بالكتب وتجارتها. فالمكتبة المتوسطة الخاصة في القرن العاشر كانت تحتوي على كتب تفوق بكثرة مكتبات أوربا وقتذاك.

فالثراء لا يتم لشخص دون ملكيته لمكتبة غنية بالكتب النادرة القيمة، فقد ذكر مؤرخ عربي أنه لما كان في قرطبة وقعت له حادثة في سوق تجارة الكتب أغضبته، وذلك لأنه اعتاد أن يكثر من التردد على السوق لمشاهدة الكتب الحديثة وشراء ما قد يحتاج إليه فوجد مرة كتابا أعجبه فعرض ثمنا وعرض آخر ثمنا أعلى، فقلت لمنافسي: أرجو الله أن يحافظ على سيدنا الطالب المجتهد، إذا كان لديك سبب قوي يحتم عليك شراء هذا الكتاب اتركه لك، وذلك لأن الثمن المعروض قد تخطى الحدود، فأجابه الرجل: لست طالبا ولا اعرف محتويات الكتاب إلا أنني قد أسست حديثا مكتبة رفعا لمرتبتي بين مواطني، ووجدت أن مكانا خاليا في المكتبة، وهذا الكتاب يملؤه، وعلاوة على هذا فخط هذا الكتاب جميل جدا وهو يسرني كثيرا كما أنه مجلد تجليدا فاخرا، لذلك لا يهمني الثمن الذي أدفعه فيه، فأجبته: إن الناس الذين هم مثلك لديهم الوسيلة لتحقيق رغباتهم " الجوز للذي لا أسنان له"!.

نعم إن الذين لا أسنان لهم كثيرون، لذلك ستستمر هذه الحالة لا عشرات السنين بل المئات، وهذا عنصر هام من عناصر الحياة الاقتصادية العربية، فقد كانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربي الملايين سنويا، فالمكتبة النظامية لجامعة بغداد مثلا كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف المليون فرنك ذهبي لشراء الكتب والمخطوطات، لذلك كانت مصدرا من أهم مصادر الرزق لمئات الآلاف من البشر.

فالنساخ والخطاطون كانوا فنانين في مهنتهم فكل مكتبة وكل تاجر يوظف لديه عددا من هؤلاء الموظفين ومعظمهم من الطلبة الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومي أو من الفقراء المتعلمين، ثم نجد صناع الورق في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس الشام وطبرية بفلسطين و"ياتيفا" الشهيرة بالقرب من بلنسية في الأندلس، ثم نجد مجلدي الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية مثنى ورباع وثمان وسداس عشر في الحجم المعروف باسم المنصورى أو كما يعرف الآن باسم "فوليو folio" والبغدادي وهو المعروف الآن باسم "كوارت quart".

وكما نجد نحن اليوم الكتب كذلك الحال مع عمال الجلد فهم الذين كانوا يزخرفون جلد الكتاب. وكم رزمة ورق وكم لتر مداد من الكحل والصمغ العربي تستهلك سنويا؟ وكم ورق غزال أو ماعز يستخدم والرق الجميل والسختيان وغيرها؟

فتجارة الكتب والصيدلة مهنتان من اختراع العرب. فتاجر الكتب رسول من رسل الثقافة، كما أن مكان بيعها مركز ثقافي هام في المدينة. فهذه التجارة وجدت أولا لزمن طويل فقط عند العرب.

ففي سوق الوراقين – هكذا كان يسمى الحي الواقع عند باب البصرة حيث كان يوجد أكثر من مائة وراق في محالهم- كان يلتقي علماء بغداد، وعلماء العالم الإسلامي، هنا يلتقي الفيلسوف مع الشاعر والفلكي حول الكتب الجديدة، وهنا التقى الطبيب مع المؤرخ وجامع الكتب النادرة، وهنا كانت تعقد حلقات المحاورات العلمية والندوات الأدبية، فهنا مركز الثقافة العربية، هنا يتبادل العلماء الآراء، لذلك لا عجب إذا ظهر عام 100م " كتاب تبادل الآراء"، وهو يشتمل على مائة حديث وستة جرت بين العلماء

في بيت فيلسوف حينا وفي سوق الوراقين أحيانا. وفي ذلك العصر ظهر فهرس ابن النديم، وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء، وفي هذا الفهرس ذكر سائر الكتب العربية الأصلية أو المنقولة إليها من اللغات الأجنبية. وقد عرف كل مؤلف أو كل كتاب بمقدمة شخصية يعرف فيها القارئ بصاحب الكتاب. وقد قدم ابن النديم لهذا الكتاب بمقدمة تحدث فيها عن حيل الوراقين وألاعيبهم.3

حركة الأفكار وتطورها في مخبر التاريخ ترتبط ارتباطا وثيقا بشبكة العلاقة الاجتماعية، وعليه لما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية قوية عند العرب أنتجت حضارة علمية كبيرة، لكن لما تمزقت شبكة العلاقات الاجتماعية، نتج عن ذلك ضياع لهذه الحضارة العلمية العملاقة. والقراءة والمقروئية ما هي إلا مخرجات طبيعية للحضارة.

4- <u>النظرية الخلدونية المفسرة للعلاقة التاريخية بين القراءة والعلم والحضارة:</u>

يرى العلامة ابن خلدون أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، وذلك لأن الحضارة كنسق تاريخي هي عبارة عن تنظيم اجتماعي جديد للعلاقات الاجتماعية المضبوطة بضابطي العدل والأخلاق، حيث يصبح المجتمع بعد ذلك موفرا للحوض المعرفي الذي يكبر ويزداد بازدياد العدل والأخلاق أي النسق الحضاري.

" والسبب في ذلك أن تعليم العلم، كما قدمناه، من جملة الصنائع. وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم، ممن نشا في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي، لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة، شان الصنائع في أهل البدو. واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى اربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام. ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة، من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفنن، ومن جملتها تعليم العلم، وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها، منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا. وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم، ينظر عليها أو يصب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والصلاح والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرعت بحارها. والله يخلق ما يشاء."4

5- <u>الطريقة المثلى في قراءة الكتب ومطالعتها:</u>

تعددت الطرق في مجال قراءة الكتب والمطالعة باختلاف المدارس والخبراء من الخرائط الذهنية إلى القراءة السريعة إلى خرائط المفاهيم، لكن تبقى أفضل الطرق وأجداها هي طريقة SQ3R إنها طريقة شاملة وفعالة.

كيفما تصرفت بوقت دراستك فانك ستصرف معظمه على الكتب والمقالات، محاولا البحث وتنظيم الآراء التي وضعت مسبقا وفق ما تقتضيه أهدافك، ولكن يجب أن تكون حسن الاختيار في قراءتك. في بداية المنهاج سيعرض عليك قائمة كبيرة بأسماء الكتب قد تصل طول ذراعك لكبرها، وإذا حاولت ان تقرأ هذه القائمة جملة جملة، فانك ستجد عناوين كثيرة أخرى تضاف إلى هذه القائمة قبل ان تفرغ من تلك العناوين السابقة.

من الواضح انه ليس لديك الوقت الكافي لقراءة كل شيء. ان كل كتاب تطلع عليه بحاجة إلى معالجة خاصة مختلفة وذلك حسب

ما تنوي الحصول عليه من هذا الكتاب.

تذكر ما كتبه فرانسيس بيكون قبل 350 عاما:

" بعض الكتب للتذوق وغيرها للالتهام والبعض القليل للمضغ ثم الهضم"، أي ان بعض الكتب يجب قراءتها جزئيا فقط، وغيرها يكون للقراءة غير الجدية (بدون اهتمام)، ويجب قراءة بعضها الآخر كليا باجتهاد واهتمام".

لقد أوضح بيكون الأساليب العديدة المختلفة لمعالجة النص وهي ثلاثة.

ان أساليب بيكون الثلاثة لفهم النص (سواء كان كتابا أم مقالا) مفيدة في هذه الأيام:

أ- التذوق: وهذا خاص بصفحات النص المنفصلة.

ب- الالتهام: قراءة النص بأكمله بسرعة.

ج- المضغ والهضم: دراسة النص بأكمله بعناية واهتمام تحتاج فقد إلى أن تسأل نفسك عما تريد الحصول عليه من هذا الكتاب.

هل ترغب مثلا ان :

1- تحصل على فكرة شاملة وواسعة عن الموضوع؟

2- ان تكتسب معرفة تفصيلية ومنظمة عن الحقائق والآراء الرئيسية المتعلقة بالموضوع .

3- الاطلاع على مرجع للإجابة على سؤال معين خاص ببحث؟

أي أسلوب بين أساليب بيكون الثلاثة (أ- ب- ج) ترى انه أكثر ملائمة لكل هدف من الأهداف الثلاثة المختلفة للقراءة؟

{ الإجابة: اني قد اختار ب للهدف الأول، وج للهدف الثاني، وأ للهدف الثالث، هل توافق}.

وهكذا يجب أن تكون إستراتيجيتك مرنة لدى معالجتك للكتب والمقالات:

يجب أن تكون مستعدا للقراءة بسرعة، أو بعمق، بشكل كامل أو جزئي وذلك وفقا لما تبحث عنه. احد الاستراتيجيات التي أثبتت نجاحا كبيرا وإمكانية كبيرة للتكيف مع جميع أجزاء أو أنواع القراءات المعروفة بالخطوات الخمس (SQ3R).

الرمز (SQ3R) مأخوذ من الحروف الأولى للخطوات الخمسة التي يتضمنها.

1-survey -2 Question -3 Read -4 Recall -5 Review:

1- القي نظرة عامة.

2- اطرح أسئلة.

3- اقرأ.

4- تذكر.

5- راجع."5

6- <u>نماذج من العلماء الأفذاذ في عالم القراءة والمطالعة من تاريخ الحضارة العربية المسلمة:</u>

لقد ظهر في تاريخنا علماء أفذاذ من المهتمين بالقراءة والمطالعة إلى درجه الشغف والكلف، وهذا راجع إلى الاحترافية المعرفية السامقة، ونموذجنا هنا في هذه الوقفة العلمية نكتشف حرص الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل القاضي على العلم.

" وروى الخطيب البغدادي في كتابه "تقييد العلم": عن أبي العباس المبرد، قال: ما رأيت احرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ- عمرو بن بحر إمام أهل الأدب، ولد سنة 163، ومات سنة 255-، والفتح بن خاقان – الأديب الشاعر احد الأذكياء، من أبناء الملوك، اتخذه الخليفة المتوكل العباسي وزيرا له وأخا، واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن، توفي سنة 247-، وإسماعيل بن إسحاق القاضي- الإمام الفقيه المالكي البغدادي، ولد سنة 200، ومات سنة 282-.

فأما الجاحظ فانه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره، أي كتاب كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر في الكتب.

وأما الفتح بن خاقان فإنه كان يحمل الكتاب في كمه أو في خفه، فإذا قام من بين يدي المتوكل للبول أو للصلاة، أخرج الكتاب فنظر

فيه وهو يمشي، حتى يبلغ الموضع الذي يريده، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه، غلى أن يأخذ مجلسه، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة، أخرج الكتاب من كمه أو خفه، وقراه في مجلس المتوكل إلى حين عودته.

وأما إسماعيل بن إسحاق القاضي، فإني ما دخلت عليه قط إلا رأيته وفي يده كتاب ينظر فيه، أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه، أو ينفض الكتب."

خاتمة:

القراءة الفعالة لها علاقة وطيدة بالحضارة كنسق تاريخي متغير في المجتمع ومعادلة الحضارة كما يذكرها مالك بن نبي هي كالآتي:

الحضارة = إنسان + تراب + وقت.

ففي اللحظة التاريخية التي يتم فيها الاستثمار في الطاقة الترابية والطاقة الوقت ويتم إقصاء الطاقة الاجتماعية يحل التخلف في المجتمع وتكثر الصراعات والنزاعات الإيديولوجية والعرقية وال وتضيع الطاقات والأوقات ويحدث خراب اجتماعي عام وتضيع العلم والمعارف ولا يوجد أي قيمة للقراءة، والعلم والمطالعة والإنسان والعقل والوقت.

وفي اللحظة التاريخية التي يتم فيها الاستثمار في الإنسان تنزل الحضارة وتتوطن المدنية والنهضة، ويصبح للعلم والعلماء مكانة خاصة، وتزدهر أسواق العلوم والحرف والصنائع، ويكثر طبع الكتاب وتوزيعه وتنتشر القراءة والمطالعة بين مختلف طبقات الشعب، إنها لحظة الولادة التاريخية للمجتمع الفعال.

الإحالات والتهميش:

1- عبد اللطيف صوفي، **فن القراءة**، دار الفكر، ط5، دمشق، 2007، ص:175-178.

2- عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 34-36.

3- سيغريد هونكه، تر: فؤاد حسنين علي، **شمس الله تشرق على الغرب**، دار العالم العربي، ط3، القاهرة، 2012، ص: 289-293.

4- ابن خلدون، **المقدمة**، دار الهدى، ب.ط، الجزائر، 2009، ص: 473.

5- ديريك رونتري: تر: سمير أيوب، **تعلم كيف تقرأ**، دار الكرمل، ط1، عمان، 1986، ص: 59-60.

6- عبد الفتاح أبو غدة، **قيمة الزمن عند العلماء**، دار البشائر الإسلامية، ط1، بيروت، 2014، ص: 71.